مصرع الصحافة العظيمة

فى ظل النظم الطاغية

للأستاذ محمد عبد الله عنان

لا يستطيع مؤرخ أن يتجاهل الدور العظيم الذى أدته صحافة فى تطورات العالم السياسية والثقافية منذ أوائل القرن الماضى ؛ ولا يستطيع مؤرخ الحرب الكبرى أن ينسى أن الصحافة كانت الى جانب الجيوش والأساطيل أداة من أدوات النصر ؛ وليس مبالغة أن توصف الصحافة الحديثة بأنها فى الدولة السلطة رابعة الى جانب السلطات الدستورية الثلاث : التشريعية ، والتنفيذية ، والقضائية ؛ وفى ظروف معينة تبدو الصحافة أولى السلطات وأهمها فى الدولة أو المجتمع : تنشىء حكومات وتسقط حكومات ، وتحشد الرأى العام لتحقيق برنامج معين أو فكرة معينة ، وقوتها فى ذلك لا تعادلها قوة ، ونفوذها لا يجاريه نفوذ .

هذه حقائق بديهية لا تقتضى جدلاً أو مناقشة . وما زالت الصحافة فى الأمم العظيمة الحرة هى صاحبة المقام الأول فى قيادة الرأى العام ، وفى توجيه القوى السياسية والاجتماعية . وفى عصرنا قطعت الصحافة فى سبيل التقدم العلمى والفنى مراحل مدهشة ؛ ولكن الصحافة أصيبت فى عصرنا أيضاً بأقسى محنة عرفتها فى تاريخها القصير المدى . ففى عدة من الأمم العظيمة لقيت الصحافة ضربتها القاضية ، وأصبحت شبحاً فقط لما كانت عليه من قبل ، وجردت من أعظم وأسمى مظاهرها : حرية التفكير والكتابة ؛ ولم تبق سوى أداة ذليلة خانعة للقوى الطاغية التى تخنقها وتسيرها كيفما شاءت

وقد كانت الصحافة الحرة وما زالت مظهراً من أهم مظاهر الديمقراطية والنظم الحرة ؛ وقد أصيبت الديمقراطية والنظم الحرة فى عصرنا برجعة خطيرة ، وأصيبت معها كل مظاهرها الحقيقية ومنها الصحافة ؛ فحيثما نكبت الديمقراطية : فى روسيا السوفيتية ، وفى تركيا الكمالية ، وفى إيطاليا الفاشستية ، وأخيراً فى ألمانيا الهتلرية ، تلقى الصحافة أشد محنة عرفتها ، وتسحقها النظم الطاغية التى رأت أن تتخذها مع باقى القوى العامة ، أداة لتحقيق برنامجها وتوطيد سلطانها . وفى هذه البلاد التى يسود فيها الطغيان المطلق ، لم يبق رأى حر يستطيع أن يتنفس ، ولا رأى عام يستطيع أن يعبر عن شعوره أو يحدث أثره المشروع فى الحياة العامة ؛ ولا تستطيع أن تخرج من الصحافة إلا بصورة واحدة مكررة هى إرادة الطغاة ومزاعم الطغاة ، تفرض على ملايين من الناس لا حق لهم فى مناقشة أو نذمر ، ولا يسمح لهم بغير التأييد الأعمى

وتزعم هذه الحكومات الطاغية دائماً بأنها تحظى بتأييد الأمة المطلق ، وتحاول دائماً أن تتخذ من اجماع الصحافة المصفدة المسيرة دليلاً على هذا التأييد ؛ ولكن كيف يعرف رأى أمة لا يسمح لها بابداء الرأى ، وكيف يوصف شعور أمة نحو الطغاة ، وهى ممنوعة بالقوة القاهرة عن إبداء هذا الشعور ؟ إن حكومات الطغيان تسن من القوانين الاستثنائية ما يكفل إخماد كل صوت وكل رأى معارض ، ثم هى لا تقف عند هذه القوانين ، بل تلجأ فى أحيان كثيرة الى إجراءات الهوى ، فتنزل بأولئك الذين يجرؤون على معارضتها أشنع العقوبات من قبض واعتقال ومصادرة ، بل ومن إعدام ، كل ذلك دون قانون ودون تحقيق أو محاكمة ؛ وليس من المبالغة أن نقول إن الحياة البشرية فى هذه الأمم ، أضحت كالحريات العامة ، دون ضمان وطمأنينة ؛ وما زلنا نذكر كيف أن مئات من الألمان أزهقوا فى ٣٠ يونيه الماضى بيد هتلر ومعاونيه لريب فى تأييدهم للنظام القائم ؛ وقد أهدر دمهم جميعاً

إنها كانت رقدة أهل الكهف

ولم تكن لى يومئذ زوجة ، فلما عدت إلى البيت لا حظت أمى أنى أشكو وجماً فى ظهرى وتكسيراً فى عظامى ، فسألتنى : « أين كنت ؟ »

قلت : « فى مركز البوليس بالمرج »

فصاحت بى : « مركز البوليس ؟ لماذا ؟ ماذا صنعت ؟ »

قلت : « شممت النسيم ! »

قالت : « أكنت تشم النسيم أم تضرب علقة ؟ »

وظلت إلى أن ماتت ، وهى فى شك من هذا الأمر

ابراهيم عبد القادر المازنى

لأن « الزعيم » أراد إعدامهم وكفى

* * *

تصفد الحرية الفكرية بهذه الاغلال حينما يقوم الطغيان (الدكتاتورية) . وقد كان البلاشفة أول من أخضع الصحافة لهذا النظام الحديدى ، فلقيت فى ظل العهد الجديد ما لم تعرفه فى ظل القيصرية من القيود والاغلال المرهقة ، ولم تلبث أن استحالت الى أداة رسمية صماء لا رأى لها ولا إرادة ، وخفت الرأى العام الروسى منذ ثمانية عشر عاماً فلا يعرف العالم الخارجى عنه شيئاً ؛ وحذت الفاشستية حذو البلشفية فى استعباد الصحافة وإخماد هذا التنفس الذى قد يثير حولها الصعاب إذا ترك طليقاً ؛ ثم اقتفى الكماليون هذه الخطة فى تركيا ، وفرضوا على الرأى العام أغلالاً لم يعرفها فى العصر الحميدى ؛ ولما قام الطغيان الهتلرى فى ألمانيا ، كانت أولى وسائله لتوطيد سلطانه أن يسحق الرأى العام الألمانى ، وذلك بسحق الصحافة متنفسه الطبيعى . وقد ذهب الهتلريون فى ذلك الى حدود لم تعرفها أشد عصور الطغيان

كان فى ألمانيا ، قبل أن يغمرها طغيان الوطنية الاشتراكية ، صحافة عظيمة زاهرة تعد فى مقدمة أعظم صحافات العالم ؛ وكان لها نفوذها القوى فى توجيه الرأى العام وفى التعبير عن رغباته وميوله ، شأنها فى كل الأمم العظيمة . ولكن زعماء النظام الجديد أدركوا قوة الصحافة وخطرها على نظم الطغيان ، فسحقوها بيد من حديد ووضعوا لها تشريعاً استثنائياً خاصاً يسلبها كل حرية وكل استقلال فى الرأى ، وجعلوا منها صناعة رسمية ، ومن محرريها المسئولين عمالاً للحكومة ؛ وأنشأوا وزارة خاصة للدعاية ، تتركز فيها جميع عناصر الوحى والرأى والقول فى ألمانيا كلها ؛ ولم يحجموا بذلك عن أن يمزقوا بيدهم آخر الأقنعة التى تستتر بها الدكتاتورية ، وأن يعترفوا جهاراً بأنهم هم الذين يوجهون الصحافة وينفذونها بكل عناصر القول والرأى ؛ ولم يصفد الهتلريون الصحافة السياسية فقط ، ولكنهم صفدوا كل أنواع التفكير والكتابة ؛ والأدب والشعر ، والفنون والعلوم وكل ألوان الثقافة ، وجعلوا منها جميعاً أداة لبث مبادئهم وتمكين سلطانهم من أعناق الأمة التى يدعون الوصاية عليها . ومنـــذ أيام قلائل أصدرت الحكومة الهتلرية قانوناً استثنائياً جديداً يشدد أغلال الصحافة الألمانية ويقضى على آخر المظاهر التى بقيت لها . وقد وصف القانون الجديد بأن القصد منه « صون استقلال الصحافة » والواقع أنه يقضى على آخر ما بقى لها من لمحات الاستقلال ، والمقصود به بنوع خاص أن يقضى على الصحافة التى تمثل مصالح المهن والطوائف والجماعات العامة ، وعلى الصحافة الكاثوليكية التى مازالت قوية فى جنوب ألمانيا وغربها[1] . وهو ينص على حرمان كل شخص لاينتمى إلى الجنس الآرى من العمل فى الصحافة وكل متعلقاتها ؛ وإذا أريد تغيير ناشر الصحيفة أو محررها وجبت موافقة السلطات ؛ وإذا رؤى فى أى جهة من الجهات أنه يوجد من الصحف مايزيد عن حاجتها عطل منها ما كان زائداً عن الحاجة ، وقد نص أيضاً على تعطيل جميع الصحف التى تعنى بنشر الحوادث الجنائية والاجتماعية ووصفت فى المرسوم بأنها « صحافة الفضائح » ، والخلاصة أن القانون الجديد لايفسح مجال الحياة والظهور لغير الصحافة النازية الحكومية

ولقد كانت هذه الضربة الجديدة لقتل صحافة عظيمة مثار الاشمئزاز حينما تقدس حرية الفكر والرأى ، واستقبلتها الصحافة الانكليزية بعاصفة من السخط ؛ وكتبت « التيمس » مقالاً رناناً قالت فيه ؛ « إن خضوع الشعب الألمانى أمام تقييد حرياته ومورد أخباره يعتبر حادثاً مزعجاً جداً . وكيف يستطيع الشعب الألمانى بعد ذلك أن يقف على الظروف الحقيقية للسياسة الدولية من هـذه المصادر التى تقدم له الآن . وكيف يفهم الألمان عبارة « الاعتزال السياسى » فى أوربا ، وهى عبارة يرددها زعماؤهم وهى فى الغالب من صنعهم وتدبيرهم ؟ وهل يفهمون الظروف الحقيقية التى قتل فيها الدكتور دولفوس المستشار النمسوى ؟ والتى دبرت فيها مذبحة ٣٠ يونيه فى ألمانيا ؟ وما يلقاه اليهود والسجناء السياسيون ، وما يكون لهذه الأمور من أثر فى الرأى العام الأوروبى ؟ » وقالت الجارديان : « ان الصحافة التى كانت فى ألمانيا من أعظم الحرف وأرفعها ، تنحدر الآن إلى الحضيض . وليست الجرائد « النازية » الحالية التى حلت محل الصحف التى كانت من قبل من أمهات الصحف العالمية ، سوى وريقات لبث

(١) يلاحظ أن معظم الصحف الألمانية الكبرى تطبعها النزعة الكاثوليكية ؛ وهـذه الصحافة هى التى ما زالت تضطلع بالمركة الثقافية والروحية ضد النظام الاشتراكى الوطنى

الدعاية الخاصة ؛ ولم يبق أثر لحرية الفكر والجدل والمناقشة . وكان من مفاخر هذه الحرفة الكريمة فى ألمانيا أن عدداً عظيماً من كتابها وصحافييها آثروا الخراب والنفى والسجن على هذا الانحطاط الشنيع » ثم تتساءل الجارديان : « فهل بقى فى الشعب الألمانى روح حى يأسف على ضياع حرياته الفكرية والقلمية أو يثور على تلك التدابير التى تتخذ لسحق هذه الحريات بصفة نهائية ؟ »

والواقع أن الصحافة الألمانية سقطت من عداد الصحافات العظيمة منذ تولى الهتلريون الحكم ؛ ولم تفقد كل قوتها ونفوذها السياسى والاجتماعى فقط ، ولكنها فقدت كل خواصها ومميزاتها الثقافية الممتعة التى كانت من قبل تفخر التفكير الألمانى ؛ وأخذت الصحف الألمانية العظيمة تختفى من الميدان تباعاً بعد أن فقدت مركزها وخاصة قرائها ، وامتدت النكبة إلى الصحافة الأدبية والفنية والعلمية ، فأخذت تنحدر إلى نفس المصير المحزن ؛ وتسيرها نفس الدعاية السياسية والثقافية التى غمرت ألمانيا ؛ وغدت الصحف الألمانية العلمية التى كانت من قبل اسفاراً جليلة تحمل على الاعجاب والاحترام ، أدوات للدعاية الهتلرية ، تحدثك باستمرار عن نظريات « الزعيم » فى خواص الجنس الآرى ، وانحطاط الأجناس السامية ، وتفوق السلالة الألمانية ، وأصول الثقافة الجرمانية القديمة ، وغيرها من المبادئ والنظريات الجنسية المتعصبة التى أصبحت ظاهرة الحياة العامة فى ألمانيا ؛ وأضحى أصدقاء الثقافة الألمانية الحرة فى حيرة من هذا الخلط المحزن بين الحقائق والغايات العلمية ، وبين النظريات والدعايات الحزبية التى جعلتها وزارة الدعاية الهتلرية فوق كل شىء فى حياة الشعب الألمانى

وتشعر الدوائر العلمية والأدبية والطبقات المفكرة الألمانية عامة بخطر هذا التيار الجارف على مستقبل التفكير والآداب الألمانية ، ولكنها لا تستطيع أن تفعل شيئاً لمقاومة هذا الخطر لأنها توضع تحت نفس النظم الجديدة التى جعلت من الصحافة ووسائل الثقافة الفنية كالمسرح والسينما والموسيقى والراديو ، أدوات للدعوة الحزبية المحضة . ويشعر الزعماء الهتلريون أنفسهم بفداحة الأثر الذى أحدثه هذا الاستعباد المطلق للتفكير الألمانى ، ويحاولون تبريره بمختلف النظريات والمعاذير . وملخص نظريتهم فى ذلك هو أن الصحافة من مظاهر الأنظمة الحرة وخواصها ، ومثل هذه المظاهر لا توجد فى ظل الاشتراكية الوطنية ؛ والمبادئ الحرة لم تسمح بتوحيد كلمة الشعب ، والاشتراكية الوطنية تريد الشعب كتلة واحدة ، وكلمة واحدة ؛ وقد كانت الصحافة فى عهد الحريات القديمة تستمد أعظم قواتها ونفوذها من الانتماء إلى الأحزاب ، ومن إثارة المناقشات السياسية ؛ فلما أزيل نظام الأحزاب أو زال منه تلقاء نفسه انحدرت الصحافة الحرة إلى مثل هذا المصير ، وفقدت أهميتها الحزبية والسياسية ؛ والاشتراكية الوطنية لا تقيم وزناً للجدل السياسى ، وفى رأيها انه متى زالت البواعث الموجبة لهذا الجدل ، وهو الخلاف الحزبى ، فان الصحافة تغدو أداة متماثلة فى عملها ومظاهرها . والاشتراكية الوطنية لا تعتمد على الصحافة كأداة للدعوة ، ولكنها تعتمد فى ذلك على الاذاعة اللاسلكية ؛ وهى عمادها فى قيادة الشعب وإرشاده . وأما الصحف فمهمتها أن تنقل للناس ما يسمعونه بواسطة « الراديو » لكى يعودوا فيقرأوه ويتدبروه . وأخيراً ترى الاشتراكية الوطنية أن الصحافة من الأنظمة القومية ، فيجب أن تكون حرفة رسمية تشرف عليها الدولة ، ويجب ألا يشتغل بها سوى الآريين ، فلا يسمح لليهود أن يشتغلوا بها أو يساهموا فى امتلاكها (وهذا ما يقرره قانون الصحافة الهتلرى) . وكما أن الصحافة السياسية تتلقى كل مواد الكتابة والتعليق من المكتب السياسى بوزارة الدعاية ، فكذلك تشرف على توجيه الصحافة العلمية والأدبية والفنية « غرفة للثقافة » وعلى توجيه الصحافة الاقتصادية والمالية « غرفة الدعاية الاقتصادية » ، وهكذا يسير التفكير الألمانى كله طبقاً لخطة حزبية موضوعة تقرر له المبادئ والمواد من وراء ستار وتلقنها إليه تحت سلطان القوة والوعيد

* * *

وهل نحن فى حاجة لأن ندحض هذه النظريات والآراء الرجعية الطاغية ؟ ان الاشتراكية الوطنية تعترف بأنها تقتل الصحافة لأنها لا تطيق النظم الحرة ، وفى ذلك ما يكفى للحكم على تدليلها ووسائلها . ولقد كانت حرية التفكير فى جميع العصور والأمم من خواص الأنظمة والحضارات العظيمة . ولكن ماهى الاشتراكية الوطنية الألمانية فى الواقع ؟ هى مزيج من الآراء والنظريات القومية والجنسية المفرقة ، التى تحمل فى معظمها